# لماذا نقد العقل المصري؟

"لقد وجهوا أسئلة عن كل شيء".

هذا هو المأزق الذي تَرَكَنا فيه فلاسفة اليونان منذ آلاف السنوات، وضعوا آلاف الحلول وتركوا خلفهم ملايين المشكلات الجديدة، واستمر من بعدهم آلاف المفكرين على هذا المنوال، لكننا حين نتطلع حولنا، نجد أسئلة جديدة تبرز من جديد، أسئلة ذات طعمٍ لاذعٍ وحريفٍ ومُدمٍ، أسئلة ذات رؤوس سوداء تظل تخرج من كل مكان، حتى يتحول الأفق إلى لوحة سوداء كاملة، ليخرج السؤال الأخير:

أليس هناك نقطة ضوء واحدة في كل هذا السواد؟

يا إلهي.. ما الذي نفعله بأنفسنا وبوطننا، ما الذي يفعله الحاكم والمحكوم، ما الذي يفعله السيد والخادم، ما الذي يفعله المثقف والأمي، إننا جميعًا نحرق أجمل عطايا التاريخ لنا، نحرق الوطن، ونحرق أبناءنا، ونحرق أنفسنا، ونحرق تاريخنا دون أن نعي، أو نعي ونردد: "عليّ وعلى أعدائي"، نصرخ كـ(شمشون) ونستمر في سفك الدماء، دماء أنفسنا، ودماء الآخرين، ودماء الوطن الذي أصبح مستباحًا بين قبضة الحاكم وقدم المحكوم.

ما هو أصل مشكلتنا الحقيقية، هل أعودُ لمفردات تقليدية مثل الديكتاتورية؟ هل هي الديكتاتورية فقط؟ هل نضم لها الفقر؟ هل نضم لها ميراثنا التاريخي، من الانسحاب والنكوص وسلوك الثأر الذي ينتشر في كل شيء، تحقير الذات، انهيار القيمة والقدوة، الخزعبلات الدينية، اللامبالاة الجماعية، الشك، فساد السلوك، الكذب، عدم قبول الآخر، الذل والاستذلال، قتل النهر، موت الضمير، سياسة حافة الهاوية، مجتمع الفوضى، النطاعة الحكومية؟ إضافة إلى عشرات العوامل السلبية الكامنة التي تلعب في كل الشوارع كمهرج شيطاني يرتدي كل الأسمال فيعبث بالجميع، لا يفرق في عبثه بين قرية ومدينة، أو قصر وكوخ، أو سجن وحديقة عامة.

أعتقد أن الأمر أبعد من ذلك بكثير، ربما علينا أن نقوم بوضع كل تلك الحالات تحت المجهر الاجتماعي والنفسي والوراثي والسياسي.
هناك أحداث ما على المستوى الفردي والجمعي تتكرر بشكل أو بآخر، هذه الأحداث في عموميتها مقيتة وقاتلة، وتكرارها يدل على نية العمد المبيتة لارتكابها، وبالتالي فتجاهلها يعد مشاركة في تلك الجريمة أيضًا.

لقد أصبح المشهد الذي تعرضه وسائل الأعلام أمام العالم، أننا أسوأ أمة في التاريخ، صورنا كدليل دامغ على القذارة والأمية والسلوك الفاسد تملأ مجلات وجرائد العالم، هل وصل الأمر بنا إلى هذه الدرجة، لنضيف إلى هذه الفوضى، فوضى ما يحدث في الشارع في مصر، لصالح من كل هذا؟ لصالحنا كمصريين؟!

هل نحن فعلاً الذين قال عنهم (جمال حمدان) إننا الشعب الوحيد المؤهل في العالم للوقوف في وجه الولايات المتحدة لما نمتاز به من ذكاء، وما نمتلكه من تاريخ، ومع ذلك فقد لوّثنا كل شيء وما زلنا؟

هل ستنفع تلك اللطعات الملونة التي نلطخها على صورة الوطن الكلية في إعادته إلينا جميلا؟

لن أزايد على حبنا لوطننا، ولكنه حب الدببة، وخنجر (بروتس)، وتآمر (كلوديوس)، وسيوف (روبسبير)، ومصباح (نيرون)، ولكن أين هو هذا الوطن الآن؟ ما الذي يمتلكه الآن؟ ما هي تركيبة العقل المصري الآن؟ هذا العقل الذي أصبح عُمره يربو على النصف قرن، هذا إذا اعتبرنا أن ثورة يوليو هي العقل الجديد المعاصر الذي بدأ منه المصريين في القرن الماضي حين شعروا بأن الوطن وطنهم، وبأن هناك ما يسمي بالحرية والعدل والمساواة والحق، لنكتشف بعد سنوات من

التجارب والخطايا المتوالية، أن حبنا كان للكلام وليس للفعل، فنحن لم نتخلص من الملكية، ولم نتخلص من الإقطاع، ولم نتخلص من الاستعمار، لقد استبدلنا الأقنعة فقط، تغيرت الوجوه، إلى وجوهٍ من أبناء الوطن كانتْ أسوأ في تعاملها مع أبناء جلدتها...

هل يساوي كل هذا العدد من المعتقلين منذ الخمسينيات وحتى اليوم العدد نفسه في عهد الملكية؟، الإجابة بالطبع لا، وألف لا، ومع ذلك فقد ارتكبت الجمهورية الخطايا نفسها التي اُرتكبتْ في عهد الملكية.

هل يمكن أن أصدق بأن أزمتنا كانت إدراك العلاقة بين الحرية والديمقراطية، وبأن حريتنا المنتظرة كانت تُمضغ دائمًا بين فكيّ أصحاب السلطة والمثقفين؟!

لقد أخذنا نفكر طويلاً فيما وفيمن سنتوجه إليه بالنقد، وهي نفس الحيرة التي تملكتْ تاريخًا طويلاً من البشر حين فكروا، هل العقل فقط هو الذي يستحق النقد، هل نضم إليه الإحساس والمشاعر؟ هل نضم إليه كذلك إرادة المصريين؟ هل هي كل ذلك؟ هل هو ميراثنا الطويل من السكينة؟

بشكل عام لقد تكلمنا في ذلك جميعًا، لكن العقل كان هو المرصود، بسبب معرفته المتشابكة، والتي أدتْ في النهاية إلى العديد من

الضلالات التي أعتقد أنها لوّثت جذور هذا العقل، فوصل إلى هذه الحالة من التراخي واللا مبالاة، أو إلى أقصي حدود عبقرية الانحراف، أو إلى المشاركة المحمومة في تدمير الذات.

ربما عليّ أن أعترف أيضًا بأن هناك من الأسباب التي دفعتني إلى كتابة هذا العمل: الأول أنني منذ عدة شهور حضرت جلسة جمعتني بأكثر من ثلاثين أستاذًا جامعيًا، ودار الحديث كله حول حالة الانهيار التي يشهدها العقل المصري منذ عدة سنوات على المستويين الفردي والجمعي، استوقفني في الأمر أن الجميع شارك مؤكدًا على هذه الحالة الانتكاسية، وفي فورة الحديث أدركت أننا جميعًا - بقدرٍ ما - قد وصلنا إلى حالة من النهليستية الجماعية، كأنها حالة من الانتحار والعدمية المفرطة التي لم يعد بالإمكان إيقافها، كأن لا شيء يستحق الإشادة به في هذا البلد الموعود دائمًا بالمصائب وغرغرينة التسوس الاجتماعي اللا إنساني، كل هذا الإحساس الانفعالي الطاغي دفعني إلى أن أسألهم سؤالاً واحدًا: أليس هناك أي نقطة ضوء في نهاية هذا النفق العبثي؟ وبالطبع لم تكن هناك إجابة.

والسبب الثاني أولادك وأولادي، ما هو مستقبل عقولهم إذا كان هذا هو ما نرزح تحت وطأته؟ ولم أجد إجابة للوهلة الأولى.

والسبب الثالث كان سؤالاً يترنح على شفتي دائمًا ثم يسقط أمامي فجأة فارشًا الأرض بلون الدم: ما هو السبب الحقيقي الذي قامتْ من أجله الثورة إذا كان هذا هو ما أصبحنا فيه في النهاية؟

لماذا يحدث ما يحدث؟ قرأتُ الكثير من الكتب والمقالات لمفكرين مصريين وعرب وغربيين، ومع ذلك لم أستطع الاهتداء للسبب الحقيقي وراء كل ما يحدث، كان الجميع يحاول تبرير ما فعله الجميع، بشكل فئوي ومتضامن، ومع ذلك لم يقل لنا أحد ما هو الصواب، نرجسية الفكر كانت هي المسيطرة، سأستعير تلك الجملة التي أشار إليها (عادل حمودة) في كتاب نشره في منتصف الثمانينيات عن أزمة المثقفين مع (عبد الناصر)، كانت لـ(عبد الناصر)، حين كان يحاول البحث عن مخرج لكل ما يحدث محاولاً الاستعانة بآراء الحكماء والعقلاء، كان دائمًا يفاجأ بأن كل من كان يتحدث معه في تلك الفترة البعيدة من تاريخ الوطن يقول له كلمة "أنا"، "أنا الحل"، "الحل عندي"، "أنا أرى". أليس هذا تقريبًا ما يحدث الآن؟ أم أننا نكرر أخطاء الماضي التي حاول أحدهم أن يُخلصنا منها لكنه لم يستطع لأن الجرذان تعود دائمًا لنفس البالوعة.

منذ زمن ونحن لا نرى سوى "أنانا" فقط ولا شيء آخر، تتبعتُ كل الطرق والخطوات، وقلتُ لعلّي أنا الآخر واحدٌ من الذين تعلموا

رفضَ أفكار الآخرين دون أن يتفحصوا فيها، وأقلقني هذا التصور، وعدتُ لأُبدي قناعتي بالعديد مما تمت كتابته من قبلُ حول أوضاع المصريين، إنها وجهات نظر مختلفة بعضها صحيح وبعضها يعوزه الصواب، وربما أكون واحدًا من هؤلاء، إذن فأنا لا أملك سوى أن أقدم رأيي دون أن أجزم بأنه صحيح.

السبب الرابع لكتابة هذا العمل هو رغبتي في تقديم إجابة لصديق عزيز سألني لماذا هذا العمل إذا لم تكن ستغير شيئًا؟ وكان محقًا في جانب في تساؤله، لكنني لا أكتب هذا العمل لأنفض يدي مما يحدث في مصر الآن، وأعطي ظهري لوطني، أنا أكتب هذا لأتفحص فيه كل صباح بأن هناك وطن أحبه وأتمنى له - رغم كل ما فيه - أن يصبح الوطن الأول في العالم في كل مؤشرات التنمية، أتطلع لأن تختفي منه المعتقلات، والترزية، أن يختفي حكم الفرد، أن تختفي اتهاماتنا لبعضنا البعض بدون سبب، أتطلع بأن أتنفس فيه هواءً نظيفًا، وأن أسير في شوارع نظيفة تملؤها الورود والأشجار، أن لا أجد شحاذًا ينتظر على قارعة الطريق، أتطلع أن نصبح جميعًا أصدقاء، وأتطلع بأن نعطي كل ما لدينا وليس بقدر ما نأخذ نعطي، أتطلع لأشياء كثيرة جميلة.. فهل هذا كثير؟

هذا العمل أيضًا ليس هجومًا على السلطة وليس دفاعًا عنها، ليس دفاعًا عن (عبد الناصر)، فليس هناك من يملك قدرة الدفاع عن (ناصر) إلا (ناصر)، كان (ناصر) يحلم بالكثير لهذا الوطن، لكن الكثيرون في الداخل والخارج نهشوا لحمه حيًا وميتًا، ربما يكون له بعض الأخطاء، ولكن مَن منا بلا خطيئة؟ لقد حقق (عبد الناصر) في مصر يوتوبيا جديدة للحكم، ولكن نحن من لوّثناها، حقق الأمان للعمال والفلاحين في الوقت الذي كان فيه كل المثقفين والسياسيين غير قادرين على تغيير أي شيء في بلد حَكَمَته الملكية والإقطاع والإنجليز والفرنسيين عشرات السنوات، فإلى متى كان يمكن أن يستمر هذا الوضع؟

أيضًا يجب أن أعتذر إلى أبى - رحمه الله - بعد أن مات، كان يضع صورة (عبد الناصر) في كل غرفة، ولم أفهم لماذا إلا بعد ذلك بسنوات عدة، حين تعرفت على كتابات لثلاثة أشخاص ليس بيني وبينهم سابق معرفة شخصية، فقط من كتاباتهم، وحاورتُ العشرات والمئات، لأدرك في النهاية أن ما فعله (عبد الناصر) لم يكن إنسان آخر ليجرؤ على فعله، فقد كان هو (ناصر) الوحيد، رحمه الله وطيب ثراه.

لم يكن مكمن المشكلة الحقيقية فيه، بل فينا، نعم فينا كشعب، مازلنا نرتع في الخرافات.

وعلى ذلك فأنا أتوجه بهذا العمل البسيط إلى الناس، إلى العمال والفلاحين وسائقي التاكسي وربات البيوت والتلاميذ والطلاب، إلى الأجيال الجديدة الناشئة، إلى كل من يريد أن يساعد في إعادة بناء وطن جميل، له في التاريخ والثقافة والعلم والفن فتوحات لن يستطيع أحد أن يُهيل عليها التراب أبدًا... أبدًا.

أؤمن أيضًا بأن الحروف لا تُغير المعالم لكنها تنير الطريق، فلا يمكن وضع روشتة سياسية وإصلاحية في بضع أوراق، لكن يمكننا الإشارة إلى مكمن العلة ومن ثم وضع خطوط عريضة لما يمكن أن نقوم به جميعًا، ولما يمكن أن أبدأ به مع نفسي.

شاهدتُ جمال وطني الأخاذ والبديع في لحظة صفاء لا تتكرر من فوق أحد البنايات العالية بميدان قريب من النيل لأكتشف أن وطني مازال جميلاً، وأنه جنّة العالم إذا أردنا له أن يكون كذلك.

سأبدأ من المقولة الأولى للفلسفة، أو الفلسفة اليونانية على وجه التحديد: "لا أعرف سوى شيء واحد، وهو أنني لا أعرف شيئًا"، سنبدأ من الإنسان ونترك المؤسسة للمسؤولين عنها، ليس بحثًا عن تفسير للسلوك الفردي أو المؤسسي ولكن بحثًا في الجذور، ليس بهدف

العلاج، فهناك بعض الأمراض التي استفحلت وأصبح علاجها مستحيلاً، وربما يكون علاجها الوحيد هو البتر من جسد الوطن، وإذا كان الأمر لن يستقيم إلا بهذا فمرحبًا بالتضحية بجزءٍ من الوطن من أجل الحفاظ على بقية الوطن، وهذا الجزء لن يكون إلا بعض القيم الجديدة القديمة الخبيثة التي حان وقت اقتلاعها من الصدور ليعود الوطن وطنًا للجميع.

**زين**

**القاهرة**

**٢٠٠٦/٩/١٥**